العدد السادس والعشرون
2009

مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا
1377 من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم 2009 مسيحي

- ملامح عن المذهب المالكي في الغرب الإسلامي
- الخطاب الإسلامي مميزاته والتحديات التي تواجهه
- الشيخ محمد عبده وصلاته بأعلام الإصلاح في المغرب الكبير
- اللغة وصناعة الهوية

د. رمضان حميدة القحواش

استشهد النحاة مشارقة ومغاربة بالشعر العربي الفصيح في إثبات صحة القواعد النحوية، وقد قسم العلماء الشعر على أربع طبقات[1].

أ ـ الشعراء الجاهليون وهم الذين ظهروا قبل الإسلام كامرئ القيس وعنترة والأعشى.

ب ـ المخضرمون، وهم الذين أدركوا الجاهلية والإسلام.

ج ـ المتقدمون، وهم شعراء العصر الإسلامي.

د ـ المولدون، وهم من بعد تلك الطبقات إلى هذا الوقت. أمَّا الطبقات الأولى الثلاث فيستشهدون بشعرها إجماعاً، وأما الطبقة الرابعة فوقع فيها خلاف بين العلماء «والصحيح أنه لا يستشهد بكلامها مطلقاً، وقيل يستشهد بكلام من يوثق بعربيتهم واختاره الزمخشري»[2].

(1) خزانة الأدب ولب لباب العرب عبد القادر البغدادي تحقيق عبد السلام هارون ط الثالثة مكتبة الخانجي 1982 القاهرة 1/ 5 ـ 6.

(2) المصدر نفسه 1/ 6.

وقد سار أغلب نحاة المغرب على هذا التقسيم، فاستشهدوا بالشعراء الجاهليين والمخضرمين والمتقدمين، ومن هؤلاء ابن العريف[1]، في شرحه لجمل الزجاجي والأعلم الشنتمري[2] في شرحه لكتاب سيبويه، وابن خروف[3]، وابن أبي الربيع[4] وأبو عبدالله القيسي وغيرهم.

وهناك من المغاربة من استشهد بشعراء الطبقة الرابعة وهم من أُطلق عليهم لقب المولدين، ومن هؤلاء النحاة ابن السيد البطليوسي[5] وابن عصفور[6] والسهيلي[7] واللورقي[8].

وسوف أقف في هذا البحث بشيء من التفصيل عند هؤلاء النحاة، وسبب استشهادهم بالشعر المولد.

---

(1) الحسن بن الوليد بن نصر بن العريف النحوي، كان نحوياً عارفاً بالعربية متقدماً فيها أخذ عن ابن القوطية وغيره رحل إلى المشرق ثم عاد إلى المغرب توفي بطليطلة سنة 39هـ (معجم المؤلفين كحالة 1/ 542).

(2) يوسف ين سليمان بن عيسى النحوي الشنتمري كان عالماً بالعربية ومعاني الأشعار حافظاً لها مشهوراً بإتقانها توفي سنة 476هـ (إشارة التعيين لليافعي 339).

(3) علي بن محمد نظام الدين الحضري، الإشبلي المعروف بابن خروف كان مقرئاً مجوداً مشهوراً بالنحو فكان إماماً في العربية توفي سنة 609هـ (معجم الأدباء الباقون 15/ 75).

(4) عبيد الله بن أبي العباس أحمد بن الحسيني بن عبدالله بن محمد المعروف بابن أبي الربيع كان نحوياً ماهراً توفي سنة 688هـ (إنباه الرواة للقفطي 1/ 271).

(5) عبدالله بن السيد أبو محمد البطليوسي كان عالماً باللغات والنحو متبحراً فيهما اهتم بتدريس العلوم توفي سنة (521هـ) (بغية الوعاة 2/ 65).

(6) علي بن محمد بن علي أبو الحسن بن عصفور النحوي الإشبيلي حامل لواء العربية في زمانه في الأندلس توفي بتونس سنة 669هـ (نفح الطيب للمقري 2/ 209).

(7) عبد الرحمن بن أحمد السهيلي كان عالماً بالعربية واللغة والقراءات جامعاً بين الرواية والدراية توفي سنة 581هـ (هدية العارفين لإسماعيل باشا 1/ 520).

(8) القاسم بن أحمد بن جعفر الأندلسي المعروف بعلم الدين اللورقي كان إماماً في العربية متبحراً فيها توفي سنة (661هـ) (إيضاح المكنون لإسماعيل باشا 2/ 543).

لكن قبل ذلك ينبغي الوقوف قليلاً عند كلمة (مولد).

جاء في القاموس المحيط ما نصه: (المولَّدَةُ، المولودة بين العرب، كالوليدة والمحدثة في كل شيء ومن الشعراء: لحدوثهم)[1].

وجاء في أساس البلاغة: «غلام مولَّد، وجارية مولدة، وُلدت عند العرب، ونشأت مع أولادهم... وكلاماً استحدثوه وكلام مولَّد ليس من أصل لغتهم ومنها شاعر مولَّد»[2].

فالمولَّد إذن هو الذي لا ينتمي إلى أصول عربية، والكلام المولَّد «ما كان مستحدثاً وليس من أصل اللغة»[3].

1 ـ ابن السيد البطليوسي:

ابن السيد كان يستشهد في كتبه بشعر القدماء أسوة بغيره من العلماء الأوائل الذين ساروا على المنهج المحدد بالمكان والزمان.

إلاَّ أن ابن السيد قد خرج عن المألوف وأخذ بشعر المولدين واعتمده في تثبيت بعض الآراء النحوية واللغوية وترجيحها وقد علل ابن السيد هذا التجويز بقوله: «فإن قال قائل ليس في أشعار المحدثين حجة في الإعراب فذلك صحيح، وإنما وجه الحجة فيهما أن هذا لم ينكره أحد قط عليهما، والمراد بهما أبو تمام، والمتنبي على شدة تعصب الناس على هذين الرجلين وتتبعهم لسقطاتهما»[4].

وقد ورد استشهاد ابن السيد بالشعراء المولدين في النحو واللغة تأييداً لما جاء به من آراء، ومن ذلك ما ورد في المسألة السابعة والثمانين حينما أبطل معاندة العطف بـ (لا) بعد الفعل الماضي في قولهم (قام زيدٌ لا عمرو) بقول: «استعمل

(1) القاموس المحيط للفيروز أبادي مادة ولد.

(2) أساس البلاغة للزمخشري مطبعة الشعب القاهرة 1960 مادة ولد.

(3) الاستشهاد والاحتجاج باللغة لمحمد عيد الطبعة الثالثة عالم الكتب 1988م ص 129.

(4) المسائل والأجوبة لابن السيد تحقيق محمد سعيد الحافظ بغداد 2/ 655.

ذلك حبيب بن أوس الطائي والمتنبي، فلم ينكر عليهما أحد ممن تعقب كلامهما، وتتبع سقطاتهما»[1].

ثم ذكر بيت المتنبي وهو:

بقائي شاء ليس هُمُ ارتحالاً وحُسن الصبر زَمُّوا لا الجِمالا[2]

هذا الموضع الأول.

أمَّا الموضع الثاني فهو ما كان في المسألة التاسعة عشرة عندما تحدث عن (ربَّ) أهي للتقليل أم للتكثير قال: «ونحن نذكر أبياتاً كثيرة من أشعار المحدثين ثم نتبين في جميعها أنَّ ربَّ للتقليل وقد كَثُر استعمالهم لها، فلم ينكرها أحد من العلماء عليهم فصارت لذلك حجة»، فمن ذلك قول أبي تمام الطائي:

عسى وطن يدنو بهم ولعلَّما وإنْ تعتب الأيام فيهم وربما[3]

وقال أبو الطيب المتنبي:

ربَّما تُحسن الصنيع لياليه ولكن تُكَدِّر الإحسانا[4]

وقال أيضاً:

ولربَّما أطرَ القناة بفارس وثنى فقومها بآخر منهم[5]

وقال لسيف الدولة:

علينا لك الإسعاد إنْ كان نافعاً بشقٍّ قلوبٍ لا بشقٍّ جيوب

---

(1) المصدر نفسه 2/ 412.

(2) ديوان المتنبي الطبعة الثانية دار صادر بيروت ص 115.

(3) ديوان أبي تمام 3/ 232.

(4) ديوان المتنبي ص 130.

(5) المصدر نفسه ص 215.

فـربَّ كئيـب لـيس تنـدى جفونـه وربَّ نـديٍّ الجفـن غـير كئيـب[1]

من أشعار بعض المولدين قوله:

الحُـرُّ طلـقٌ ضـاحكٌ ولـربما تلقـاه وهـو العـابسُ المـتجهِّمُ[2]

هذه الأبيات جميعها من الشعر المُحدث ـ أي المولَّد ـ وقد استشهد بها ابن السيد على مجيء ربَّ للتقليل، وقد بلغ عدد الأبيات عند ابن السيد في كتابه المسائل والأجوبة نحو أربعة وستين بيتاً وعشرة أبيات في كتابه الحُلل، وفي أغلب الأحيان كان يعتمد على أشعار المولدين، فيشرح معنى من المعاني اللغوية، وقد يأتي ببعض القضايا النحوية ويدعمها بشعر المولدين كما فعل في موضوع (ربَّ).

2 ـ أبو القاسم السهيلي:

السهيلي من النحاة الذين ارتضوا التقسيم الطبقي للشعراء فكان يستشهد بالشعر الجاهلي أولاً ثم الإسلامي، وهكذا إلى أن يصل إلى عصر المولدين فقد استشهد السهيلي بالشعر المولد، وبالتحديد بشعر أبي تمام، فقد استشهد به على بعض القواعد النحوية من ذلك ما ذكره عند حديثه عن مجيء الحال من المضاف إليه إذا كان المضاف بعض المضاف إليه قال: «... وهو كثير، قال حبيب:

والعِلم في شُهُبِ الأرماح لامعة»[3].

أيضاً في حديثه عن إن وأخواتها وما بينهما وبين الأفعال من الشبه من حيث حروفهن ثلاثة فصاعداً لذلك جاز الوقوف عليهن[4] استشهد على ذلك بشعر أبي تمام قال: وقال حبيب:

---

(1) المصدر نفسه ص 313.

(2) المسائل والأجوبة لابن السيد 2/ 653.

(3) وتمام البيت (بين الخميس لا في السبعة الشهب) ينظر نتائج الفكر للسهيلي 246.

(4) المصدر نفسه 263.

عسى وطن يدنو بهم ولَعَلّما[1]

وفي كتاب الروض الأُنف استشهد بشعر أبي تمام كذلك على أن الميم في كلمة (ملك) زائدة قال: «ولكن الميم من ملك زائدة فيما زعموا، وأصله مَأْلك من الألوك وهي الرسالة قال الطائي[2]:

من مبلغ الفتيان عني مَأْلكاً أني متى يتلمموا أتهدم

والطائي وإن كان مولداً فإنما يحتج بشعره لتلقي أهل العربية له بالقبول وإجماعهم على أنه لم يلحن»[3] ثم يضيف: «وإنما يحتج بقول الطائي وهو حبيب ابن أوس لعلمه لا لأنه عربي يحتج بلغته»[4].

من هذه النصوص وغيرها يتضح أن السهيلي قد اعتمد شعر أبي تمام، وقد علل ذلك بعلمه أولاً، وبإجماع أهل العربية على أنه لم يلحن ثانياً.

3 ـ ابن بزيزة[5]:

أكثر الأبيات التي استشهد بها ابن بزيزة لا تتجاوز عصور الاحتجاج التي حددها اللغويون والنحاة، إلاَّ أنه قد تجاوز هذا التحديد واستشهد بأبيات للحريري والمتنبي والمعري، ومن ذلك استشهاده على تثنية المشترك بقول الحريري[6]:

---

(1) ديوان أبي تمام 3/ 232.

(2) ديوانه 1/ 69.

(3) الروض الأنف للسهيلي تحقيق طه عبد الرؤوف سعد ط الأولى، دار الفكر 1989 3/ 144.

(4) المصدر نفسه 3/ 44.

(5) عبد العزيز بن إبراهيم بن بزيزة التونسي صوفي فقيه ولد بتونس وبها توفي سنة 662هـ (تراجم المؤلفين التونسيين لمحمد محفوظ 2/ 112).

(6) هذا البيت للحريري وليس للمعري كما زعم السيوطي وهو في مقامات الحريري، ص 58 وهمع الهوامع للسيوطي 1/ 143.

جـاد بـالعين حـين أعمـى هـواه عَيْنَـهُ فـانثنى بـلا عينـين

ثم عقب على ذلك بقوله: «ولعله لم يقله غيره، وقد اطلع عليه في شعر العرب»[1].

أيضاً احتج بأبيات للمتنبي، وبيت للمعري، ومن أبيات المتنبي قوله[2]:

إذا كـان النـاس سـيفاً لدولـة ففـي النـاس بوقـات لهـا وطبـول

ثم عقب على ذلك بقوله: «حيث جمع بوقاً على بوقات»[3]. وكان ابن بزيزة ينص في كل مرة على أن قولهما ليس بحجة وهو بهذا إنما يناقض نفسه، فالمتنبي والمعري ماتا قبل الحريري ومطلعان على شعر العرب، ومشهود لهما بالفصاحة والبيان فلماذا كان قول الحريري حجة، وقول المتنبي والمعري ليس حجة؟

4 ـ ابن مالك (672هـ):

اعتمد ابن مالك بما قاله العرب الفصحاء، فقد أخذ عن العرب واحتج بما قالوه من شعر، وأغلب شواهده كانت من عصور الاحتجاج التي حددها النحاة واللغويون.

إلاَّ أن ابن مالك قد تجاوز ذلك واستشهد بشعر المولدين، وفي كتاب شرح التسهيل استشهد ببيتين من الشعر لأبي نواس وكما هو معروف أن أبا نواس من شعراء العصر العباسي ومن الذين لا يعتد بشعرهم، وقد جاء هذا الاستشهاد في موقعين:

الأول:ـ عند حديثه عن المبتدأ قال: «وإذا قصد النفي بغير مضاف إلى الوصف فيجعل غير مبتدأ ويرتفع ما بعد الوصف به كما لو كان بعد نفي صريح ويسد مسد الخبر، وعلى ذلك قول الشاعر[4]:

---

(1) غاية الأمل في شرح الجمل لابن بزيزة 1/ 56.

(2) ديوان المتنبي 229.

(3) غاية الأمل 1/ 358.

(4) البيت لأبي نواس استشهد به ابن مالك في شرح التسهيل 3/ 375.

غـــيرُ مأســـوفٍ عـــلى زمـــنٍ ينقـــضي بـــالهمِّ والحـــزنِ

الثاني: استشهد عند حديثه عن أفعل العاري لتجرده من معنى التفضيل إذا جرى على مؤنث... وعلى هذا يكون قول أبي نواس:

كأن صُغرى وكبرى من فقاقِعها[1]

صحيحاً؛ لأنه لم يؤنث أصغر وأكبر المقصود بهما التفضيل، وإنما أتت أصغر بمعنى صغير وأكبر بمعنى كبير»[2].

فالملاحظ أن ابن مالك قد اعتدَّ بهذا البيت، ولم يأت به لمجرد التمثيل والاستدلال، وإنما جاء به لإثبات قاعدة نحوية وصحح البيت الذي استشهد به، إذ أن عدداً من النحاة قد لحنَّوا أبا نواس في هذا البيت[3] لكن ابن مالك أثبته وقال بصحته، وهذا تقرير منه بالاعتماد على الشعر المولد.

ومما سبق يتضح أن المغاربة تميزوا عن المشارقة في الاستشهاد بالشعر المولد، لأن المشارقة لم يستشهدوا بالشعر المولد فهذا سيبويه مثلاً لم يحتج بالشعر المولد في كتابه، اللهم إلا ما ذكره أبو العلاء المعري من أنه قد استشهد ببيت من الشعر لبشار بن برد وهذا البيت هو[4]:

وما كل ذي لـبٍّ بمؤتيك نُصْحَهُ وما كل مـؤت نـصحه بلبيـب

قال أبو العلاء: «وحُكي عنه ـ أي سيبويه ـ أنه عاب عليه قوله[5]:

عـلى الغَـزَلِي منـيِّ الـسلام فطالمـا لهـوت بهـا في ظـل مخـضرة زُهـر

(1) صدر بيت وعجزه (حصباء در على أرض من الذهب) ديوان أبي نواس 213.

(2) شرح التسهيل لابن مالك تحقيق عبد الرحمن السيد ومحمد بدوي المختون 3/ 61.

(3) همع الهوامع للسيوطي تحقيق عبد العال سالم مكرم 5/ 112.

(4) الكتاب لسيبويه 4/ 441.

(5) ديوان بشار بن برد ص 16.

فقال سيبويه: «لم تستعمل العرب الغَزَلي، فقال بشار: هذا مثل قولهم البَشَكى، والجَمَزى، ونحو ذلك. وجاء بشار في شعره بالنينان جمع نون من السمك، فيقال أنه أنكره عليه وهذه أخبار لا تثْبت.

وفيما روي في كتاب سيبويه أن النون يجمع على نينان فهذا نقض للخبر»[1].

ولكن البيت الذي ذكره المعري، ونسبه إلى بشار قد نُسب في كتاب سيبويه إلى أبي الأسود الدُّؤلي[2] وهذا يؤكد أن قصة استشهاد سيبويه بشعر بشار ليست ثابتة، وربما كان سيبويه يذكر بعض أشعار بشار في مجلسه دون أن ينوي الاستشهاد بها، واستخدمها لمجرد التمثيل والاستدلال فقط.

وقد أشار المعري إلى ذلك بقوله: «وذكر من نقل أخبار بشار أنه توعد سيبويه بالهجاء، وأنه تلافاه واستشهد بشعره، ويجوز أن يكون استشهاده به على نحو ما يذكره المتذاكرون في المجالس ومجامع القوم»[3].

والنحاة بعد سيبويه ساروا في الاتجاه نفسه ولم يحتجوا بشعر المولدين، وقد جعل أحد الباحثين الزمخشري (ت 538هـ) هو أول من استشهد بالشعر المولَّد[4] وهذا يعني أن المشارقة سبقوا المغاربة في هذا المجال.

إلاَّ أن البحث أثبت عكس ذلك، فالمغاربة هم أول من استشهد بالشعر المولد في مسائل النحو، وأول من فعل ذلك من المغاربة هو ابن السيد البطليوسي[5]، ت (512هـ) ثم تبعه ابن الطراوة ت (528هـ) يقول الدكتور البنا: «.... وقد وجدت ابن الضائع ينسب إلى ابن الطراوة القول بجواز

(1) رسالة الغفران لأبي العلاء المعري تحقيق علي شلق دار القلم بيروت ص 213.

(2) الكتاب 4/ 414.

(3) رسالة الغفران 4/ 2.

(4) الاستشهاد في النحو عثمان فكي 276.

(5) عبدالله بن السيد أبو محمد البطليوسي كان عالماً باللغات والنحو متبحراً فيها اهتم بتدريس علوم النحو توفي سنة 521هـ (بغية الوعاة 2/ 56).

الاحتجاج بأشعار المحدثين وكان ابن الطراوة قد أخذ على سيبويه أنه أوقع في كلامه (نعم) موقع (بلى) فأراد ابن الضائع أن ينتصر له، وكان مما قاله: قيل لابن الطراوة: هل يجوز أن يقول المجيب عن سؤال: ألست قد علمت ذلك؟ نعم قد علمت ذلك، فإنه جواب صحيح معلوم لضرورة العلل، وكيف لا يكون هذا حجة عليه ومن مذهبه الاحتجاج بألفاظ أهل زمانه كثيراً»[1].

ويمكن إرجاع أسباب استشهاد المغاربة بالشعر المولَّد إلى ما يلي:

1 ـ إن ما قاله بعض المولدين من شعر لم يعترض عليه أحد من النحاة رغم تعقبهم لشعر المولدين وتتبع أخطائهم، فكان السكوت عن أشعارهم بمثابة الإجازة لهم والاقتناع بصحة أشعارهم.

2 ـ إن بعض الشعراء المولدين من العلماء المتعمقين في العربية، فهم بذلك لا يقلون منزلة ومرتبة عن الشعراء الأوائل الذين أُخذ بشعرهم واستشهد به في قواعد النحو.

3 ـ إن استشهاد المغاربة بالشعر المولَّد في قواعد النحو كان قليلاً وإن أكثر الاستشهاد كان لمجرد التمثيل والاستدلال وهذا جائز؛ لأنه أمر يتعلق بالمعنى وليس قاعدة نحوية متفقاً عليها أو مختلفاً فيها.

ومهما يكن من أمر فالمغاربة قد اتبعوا منهجاً واقعياً في الأخذ والاستشهاد بمن يوثق بهم من الشعراء المولدين «لأن التحديد الزمني السابق لما يستشهد به يعد خطأ منهجياً تترتب عليه أخطاء في النحو إذ الخطأ في المنهج يقود حتماً إلى الخطأ في النتائج»[2]. فالنحاة الأوائل قرروا أن اللغة ثابتة على حالة واحدة بينما المجتمع يتطور من زمن إلى زمن لكن اللغة تبقى كما هي، وربما جاء هذا التصور عند الأوائل من أن اللغة وُجدت كاملة لا ينقصها شيء؛ لأن الله سبحانه وتعالى

(1) السهيلي ومذهبه في النحو إبراهيم البنا 174.

(2) الاستشهاد في النحو العربي عثمان فكي 265.

خلقها كاملة ونتيجة لهذا امتدت الفترة التي كانت موضع دراستهم إلى الحد المعين الذي وضعوه، ظناً منهم أن اللغة حافظت على نفسها قبل تلك الفترة، ثم أصابها التدهور والفساد.

لذلك فإنَّ اهتمام المغاربة بشعر المولدين له ما يبرره؛ لأن الرأي الصحيح يقتضي دراسة أساليبهم والتعرف على مظاهر التجديد عندهم باعتبارهم يمثلون مرحلة جديدة من مراحل اللغة وإنهم يملكون حق التصرف فيها كما كان هذا الحق ملكاً لمن سبقهم من النحاة، فهم استشهدوا بها في زمنهم الذي حددوه وأضافوا إلى اللغة أشياء كثيرة ما كانت لتضاف لو لم يتصرفوا في اللغة كما أرادوا، وما دام الأمر كذلك فليس من الإنصاف رفض كل ما يأتي به المولدون من ألفاظ وأساليب قد تزيد أشياء كثيرة في الرصيد اللغوي وهذا ما قرره مجمع اللغة العربية حيث ينص قراره على قبول «السماع من المحدثين بشرط أن تدرس كل كلمة على حدة قبل إقرارها»[1].

(1) مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاماً مجموعة القرارات العلمية ص 3.